Journal of Alasmarya University
Volume 10, December 2008
مجلة الجامعة الأسمرية
المجلد العاشر، ديسمبر 2008

شعرية الخطابة السياسية في عصر بني أمية
نماذج مختارة

د. مطيع نشأت هيكل*

لم تتأثـر حياة مجتمع بالسياسة، مثلما تأثر المجتمع الأموي، فبعد تنازل الحسن بن علي عن الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان، وبعد أن آل الأمر لبني أمية، ظهرت أحزاب لا ترضى عن حكمهم، منها أحزاب الشيعة والخوارج والزبيريين، فوقف خلفاء بني أمية لهـم بالمرصـاد بالترغيب تارة والترهيب والقتل تارة أخرى، كل ذلك أدى إلى نشوء فن الخطابـة السياسـية تكريسـاً لحكـم بـني أمـية، ونشراً لأفكار الطاعة وحقهم في السلطة، وانتشـرت الخطابـة السياسـية انتشارا واسعاً، وشاعت على ألسنة الخلفاء والأمراء والقواد وزعمـاء الأحـزاب المخـتلفة. وقـام علـى الجانـب الآخـر في أحزاب الشيعة والخوارج خطـباء، يناهضـونهم ويدبجون من أجل ذلك الخطب المضادة، التي تدعو للثورة عليهم والخروج عن طاعتهم.

ولقـد تناول كثير من الباحثين جوانب متعددة في هذه الخطابة، مثل القيم الخلقية مـن الـتقوى والإيخـاء والطاعـة وغيرهـا، ولكـن لم يتناول جانب الشعرية أو ما يعرف بالأدبية بشكل كافٍ ومستقل.

ولاسيما أن هذا النوع من الخطب يمتاز بأسلوب شعري رصين، فالمفردة تختار بدقـة وعـناية بحيث يكون لها إشعاع إيحائي بعدد من الدلالات، والجملة كذلك تنتظم في سلسلة مترابطة متكاملة بحيث لا يمكن أن تشذ كلمة عن أختها وتخرج عن الدلالة العامة.

---

* جامعة المرقب.

كما نوع الخطيب في أسلوبه بين الخبر والإنشاء وزاوج بين الأساليب لفتاً للانتباه وإثـراء للمعنـى موظفاً لآيات القرآن الكريم والشعر، وهو ما يعرف بالتناص مستخدماً أساليب البديع والبيان مما جعل الخطبة السياسية كالقصيدة الشعرية الخالدة لما تتضمنه من أساليب بلاغية وصور إيحائية وجماليات شعرية في منتهى الحساسية تعبر عن أدق الانفعالات و الأحاسيس.

مصطلح الشعرية وعلاقته بالنثر

و(الشـعرية) مصـطلح السـني حـديث، مـثله مـثل الشـكلية والبنائـية والواقعـية والأسـلوبية إذا كانت الشكلية قد ركزت في نظرتها للنص الأدبي على داخله دون البحث في علاقاتـه بالواقـع الخارجـي نفسـياً و اجتماعـياً وتاريخياً والبنيوية قد اعتبرت الشكل طـبقاً للمـنهج الاسـتنباطي يـدل علـى المضـمون في الـوقت الـذي يـرى فـيه البنائـيون الأمـريكيون أن النص الأدبي منغلق على نفسه من خلال علاقة الأجزاء بعضها ببعض ثم علاقتها بالكل طبقاً لمنهجهم الاستقرائي[1].

والواقعـية تحـاول أن تـربط بنـية العمـل الأدبي بواقعه الخارجي نفسياً واجتماعياً وتاريخـياً فإن الشعرية كما يراها (تزفيطان تدودوروف) في كتابه (الشعرية) تسعى إلى « معـرفة القـوانين العامـة التي تنظم ولادة كل عمل ولكنها بخلاف هذه العلوم التي هي علـم الـنفس، علـم الاجتماع ... إلخ، تبحث عن هذه القوانين داخل الأدب ذاته فالشعرية مقاربـة لـلأدب مجـردة وباطنية في الآن نفسه »[2]. وبذلك تصبح للغة النثر ظلال الشعر، فالشـعرية إذاً تبحث عن داخل الأعمال الشعرية والنثرية عن تلك السمات والخصائص التي تجعل عملاً ما موسوماً بالأدبية وعملاً آخر لا يمكن أن يدخل في هذا الإطار.

« وباختصـار لم يعـد مجـال عمـل الشـعرية هـو الشـعر وحـده حسـب مفهومه التقلـيدي المـتوارث بل الأدب كله منظوماً أو غير منظوم »[3]. فالمقال والخطبة والمقامة والمسـرحية والرواية وغيرها من فنون القول يمكن البحث عن الشعرية داخلها ومن ثم يمكـن أن تجد أبحاثاً في شعرية المقامة وشعرية الرواية[4] وشعرية المسرحية وغيرها

1- انظر: د. صلاح فضل، النظرية البنائية في النص الأدبي، دار الشروق ص 114.
2- تزفيطان تودوروف، الشعرية، دار توبقال الدار البيضاء ص 23.
3- فيصل دارج وآخرون، أفق التحولات في الرواية العربية، دار الفنون عمان ص 19.
4- انظر: مطيع نشأت، شعرية القص في الرواية المعاصرة، دكتوراة جامعة الزقازيق 2002.

وهـو مـا دفعـني أن أكـتب دراسـة تحت عنوان « شعرية الخطابة السياسية في عصر بني أمـية»، لأنـي وجدت سمات كثيرة تنتمي إلى الشعرية الحديثة، بحيث تعد هذه الخطابة من روائع الأدب فهي تحتوي على كثير من معطيات الأداء الفني العالي حيث « اشتملت علـى بلاغـة الأداء وجمال التعبير إذ أنها وليدة وعي وتصميم وتنخل للألفاظ والتراكيب وبفضـل ذلـك جاءت خالية من عيوب الارتجال وفوضاه وبدت عباراتها متينة متماسكة خالصة من كل ضعف واضطراب »[5].

وعلـى الـرغم مـن جـدة تلـك المحاولـة فإنها دعوة لإعادة مراجعة تراثنا الأدبي القديم في ضوء المدارس النقدية الحديثة لنتعرف على جماليات هذا التراث العريق هذا أولاً، وثانـياً يتأكد بها -بما لا يدع مجالاً للشك- أن تراثنا الأدبي لا يقل بأي حال من الأحـوال عـن الأدب الغربـي ولا يتأبى للتحليل طبقاً لمدارسه وقوانينه الألسنية الحديثة، وهـو مـا يثـبت في الـنهاية ثـراء هذا الأدب وبلاغته وسيكون بحثي عن شعرية الخطابة السياسـية منصـباً علـى اللغة نفسها كي تكون تلك الأساليب الأدبية التي وظفها الخطيب هـي المـدخل الوحـيد والأساسي لشعرية هذه الخطابة فاختيار الألفاظ الموحية بالدلالة الدقـيقة واختـيار الجمـل والتراكـيب المنتظمة والمترابطة التي تتبدى فيها جمال الصياغة ودقة اختيار المفردات المنسجمة وتوظيف الأساليب المتنوعة التي تترك أثراً نفسياً معيناً يـولد فكـرة معيـنة ويؤكدها ويثبتها في الأذهان بالإضافة إلى توظيف الخطيب لأساليب البديع والبيان والإيجاز والإطناب وغيرها.

كـل ذلـك سيكون المدخل والأساس الذي وسم هذه الخطب بشعرية مميزة وفي الوقت نفسه سيكون السبب الوحيد الذي أبعدها عن النثرية الممجوجة والمباشرة.

شعرية الخطابة السياسية

حفلـت كتب التاريخ والأدب بكثير من تلك الخطب السياسية[6] حيث وضع فيها الخلفـاء ومـن ولـوهم من الخطباء المفوهين كزياد بن أبيه والحجاج بن يوسف الثقفي سياستهم وأفكارهم فربطوا بين طاعة الناس لهم وبين الدين الذي يحث على طاعة أولي الأمـر في عـبارات مـنظومة بدقة لا تخلو من التعبير بالصورة الفنية، المقتبسة من القرآن

5- علي نعيم جفال، زياد بن أبيه، بحث في الخطابة الأموية، بيروت لبنان ص 141.

6- انظر الجاحظ، البيان والتبيين جـ2، ابن عبد ربه، العقد الفريد جـ4، ونهاية الأرب في فنون العرب جـ7.

الكريم والحديث الشريف والشعر العربي وهو ما يعرف بـ(توظيف التناص) في النثر.

كل ذلك لإمالة قلوب السامعين مرة بالترغيب وأخرى بالزجر والتهديد والوعيد، «ولقد خلف هؤلاء الرجال المذكورون خطباء تعد كلها معلماً من معالم الجودة وغاية من غايات البلاغة حتى أن الذي يريد أن ينتخب منها يجد صعوبة في الانتخاب لعلة التشابه والتماثل من جهة ولما اشتملت عليه من رصانة وفصاحة من جهة أخرى»[7].

وسوف يكون أساس الدراسة خطب الحزب الأموي الحاكم وغيره، حيث وظفوا في خطاباتهم كافة أساليب البلاغة وتوظيف آيات القرآن والشعر.

خطبة عبد الملك بن مروان

ولنعرض أشهر خطبة للخليفة عبد الملك بن مروان في أهل الكوفة بعد أن قتل مصعب بن الزبير[8] ولقد وقع اختياري عليها لأنها تقوم على جزأين الأول «نثر شرح فيه كيف أن الحرب صعبة مرة وأن السلم أمن ومسرة وكيف أنهم بنو الحرب وهي أمهم ... إلخ».

والثاني شعر يؤكد به الفكرة السابقة حيث لا يخلو من إنذار ووعيد وترغيب وتقريب لهم حيث يقول: «أيها الناس إن الحرب صعبة مرة وإن السلم أمن ومسرة وقد زبتنا الحرب وزبناها، فعرفناها وألفناها فنحن بنوها وهي أمنا، أيها الناس فاستقيموا على طريق الهدى، ودعوا الأهواء المردية، وتجنبوا فراق جماعات المسلمين، ولا تكلفونا أعمال المهاجرين الأولين، وأنتم لا تعملون بأعمالهم، ولا أظنكم تزدادون بعد الموعظة إلا شراً ولن نزداد بعد الأعذار إليكم والحجة عليكم إلا عقوبة فمن شاء منكم أن يعود لمثلها فليعد فإنما مثلي ومثلكم كما قال قيس بن رفاعة:

من يصل ناري بلا ذنب ولا ترة ... يصل بنار كريم غير غدّار
أنا النذير لكم مني مجاهرة ... كي لا ألام على نهي و إنذار
فإن مقالي اليوم فاعترفوا ... أن سوف تلقون خزياً ظاهر العار
لترجعن أحاديثاً ملفقة ... لهو المقيم ولهو المدلج الساري

7- د. محمد عثمان علي، أدب الإسلام في عصر النبوة وبني أمية، كلية الدعوة الإسلامية ص 643.

8- هو مصعب أخو عبد الله بن الزبير، حكم الكوفة من قبل أخيه عبد الله بن الزبير حتى دخلها عبد الملك بن مروان وقتل مصعب بن الزبير بعد ن خذله أهلها.

من كان في نفسه حوج ويطلبها عندي فإني رهن بأصحارِ
أقيم عوجته إن كان ذا عوجٍ كما يقوم قدح النبعة الباريَ
وصاحب الوترِ ليس الدهر مدركه عندي وإني لدراك بأوتارِ»(9)

فعبد الملك بن مروان في خطبته السابقة قد استخدم وسائل شعرية غاية في التأثير والإقناع، فالكلمات مختارة بدقة بحيث يكون للفظ إشعاع إيحائي ينشر الرهبة والخوف، ويجعل الأمر من الخطيب ليس له إلا الطاعة والامتثال.

انظر إلى قوله عن الحرب: «وقد زبتنا الحرب وزبناها، فعرفناها وألفناها» فالألفاظ مختارة بحيث تؤدي المعنى بقوة وحسم، وتدلل على مدى المعرفة والخبرة والتعود، وكأنهم خلقوا لها وخلقت لهم، حتى إذا قال «فنحن بنوها وهي أمنا» وجدنا أنفسنا أمام صورة فنية غاية في البراعة والتصوير القائم على تجسيم المعنويات في صور حسية لإبراز خبرتهم وقدرتهم ومهارتهم في القتال فالصورة هنا على الرغم من أنها مفردة غير مركبة، إلا أنها أبدت المعنى ووفته حقه، دون الحاجة إلى صور أخرى، فقد تعودوا الحرب لدرجة أنها صارت أمهم وهم بنوها، فلا خوف ولا إحجام أوتقهقر، إنما قوة وثبات وألفة وتعود.

وعندما يصل الخطيب إلى غايته ويجد أن الكلام قد أثر في القوم ومال عقولهم تجاه الطاعة يبدأ في تنويع الأساليب كي يأخذهم نحو الاقتناع والتسليم «أيها الناس فاستقيموا على سبيل الهدى، ودعوا الأهواء المردية، ولا تكلفونا أعمال المهاجرين»، نداء عام، فأمر بالاستقامة، فنهى بعدم تكليفهم أعمال السابقين من المهاجرين، ثم نفى ... إلخ.

وهذا تقسيم جيد للجملة العربية، لا يكون إلا في الشعر الذي يحاول من خلاله الشاعر أن يصل إلى أقصى درجات التأثير في المتلقي. فإذا أضفنا إلى تلك الظواهر الفنية بدأه للخطبة بالنداء، واستخدامه أسلوب التوكيد لأكثر من مرة، «إن الحرب مُرة وإن السلم أمنُ ومسرة، وقد زبتنا الحرب وزبناها ... إلخ» تأكد لنا بما لا يدع مجالاً للشك، مدى شعرية أسلوب عبد الملك بن مروان، ومدى ما وصلت إليه الخطبة السياسية في عصره، إلى درجة من البلاغة وروعة الأسلوب.

ولا تخلو الخطبة من شعرية السجع والجناس في قوله «إن الحرب صعبة مرة،

9- انظر القالي، الأمالي، دار الآفاق بيروت جـ1 ص11 وما بعدها.

وإن السلم أمن ومسرة، وقد زبتنا الحرب وزبناها، فعرفناها وألفناها»، أو المزج بين الأساليب كأن ينهى وينفي، أو ينفي ويستثني، أو يجمع بين الشرط وجوابه: «ولا تكلفونا أعمال المهاجرين الأولين وأنتم لا تعلمون بأعمالهم ولا أظنكم تزدادون بعد الموعظة إلا شراً، ولن نزداد بعد الإعذار إليكم والحجة عليكم إلا عقوبة، فمن شاء أن يعود لمثلها فليعد ... إلخ».

فعبد الملك بن مروان «لم يظهر بطره وعلوه بما حققه من انتصار، وإنما اكتفى بالإشارة إلى الحرب فصورها تصويراً رائعاً، بغيته من ذلك أن ينفر منها أهل الكوفة الذين ما فتئوا منذ عهد معاوية يثيرونها ويدفعون الناس إليها»[10].

وإذا لم يجدِ النثر، على الرغم من ما يحوي من شعرية واضحة، فليكن الاستشهاد بالشعر حلاً أخيراً، وتنويعاً مقصوداً، يثري من قيمة النثر والأسلوب معاً، لا سيما أن الشعر المستشهد به قد وافق المناسبة والمقام، كما لا يخلو من الزجر والتهديد والترويع، «أنا النذير لكم من مجاهرة، تلقون خزياً ظاهر العار، لترجعن أحاديثاً ملفقة» «أني لدراك بأوتار».

وهكذا تزاوج (الخطبة) بين النثر والشعر، ليصل الخطيب إلى هدفه وإلى مبتغاه وهو إقناع القوم بعدم جدوى المقاومة وأن الأسلم والآمن هو الطاعة والموافقة لحكم بني أمية، وليس أدل على هذا التهديد من الصورة الفنية: خزياً ظاهر العار –ترجعن أحاديثاً ملفقة– وصيغة المبالغة (دراك) فكلها سياقات تهديد وتفزيع.

والذي ينظر في معاني الأبيات يجد أنها موافقة لما أراد عبد الملك أن يبلغه في أهل الكوفة، لقد كان عبد الملك موفقاً في استشهاده كما كان موفقاً في عنايته بأفكاره وعرضها في أسلوب جيد رصين، فهو يتخير ألفاظه ثم ينسجها نسجاً محكماً، وآية ذلك هذا السجع الذي بدأ في أولها «إن الحرب صعبة مرة، وإن السلم أمن ومسرة»، ففي العبارتين بجانب السجع الازدواجي من المقابلة ما يدل على أن صاحبهما ينظر في قوله ثم يجريه، ثم أنظر إلى هذا التصوير من زبتنا الحرب و زبناها فعرفناها وألفناها، فنحن بنوها وهي أمنا «فهي صورة كاملة لعلاقته بالحرب و مؤالفته إياها، ولا أظن

10- د. محمد عثمان علي، أدب الإسلام ص 645.

أحداً يصور معرفته للحرب فيعدو هذا التصوير الذي صوره عبد الملك»[11].

كما نجد أيضاً تأثر الخطيب بلغة القرآن الكريم وأساليبه في قوله: «فمن شاء منكم أن يعود لمثلها فليعد ...» فهو متأثر بقوله تعالى﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: 29]، ولغة القرآن تثري الأسلوب وتبلغ به شأواً عالياً من البلاغة والروعة.

وإذا كان عبد الملك بن مروان قد استخدم اللين و الملاينة ومزجه بالتهديد والتقريع، فإن واليه على العراق الحجاج بن يوسف الثقفي كان الصوت المدوي والترويع الذي وصل إلى أقصى مدى، فلا ملاطفة أو ملاينة، إنما تهديد وإنذار وقتل وتعذيب، والذي يهمنا في خطب الحجاج بن يوسف الثقفي جانبها الأدبي، حسب عنوان البحث، فهل كان الحجاج بن يوسف أقل شعرية من عبد الملك بن مروان أم ماذا؟!.

خطبة للحجاج بن يوسف الثقفي

لم تقترن الخطابة بالعنف وصور التهديد والوعيد كما اقترنت باسم الحجاج بن يوسف الثقفي فقد كان صوت الخليفة الزاعق وسيفه الباتر، وكلمته التي لا ترد، يقول في أشهر خطبه لأهل الكوفة «يأهل الكوفة، أما والله لأحمل الشر بحمله، وأحذره بنعله وأجزيه بمثله، وإني لأرى رؤوساً قد أينعت وحان قطافها، وإني لصاحبها، وكأني أنظر إلى الدماء بين العمائم واللحى تترقرق ... وإن أمير المؤمنين نثر كنانته بين يديه، فعجن عيدانها فوجدني أمرها عوداً، وأصلبها مكسراً، فرماكم بي لأنكم طالما أوضعتم في الفتن وأضجعتم في مراق الضلال، وسننتم سنن الغي، أما والله لألوحنكم لحو العصا، ولأقرعنكم قرع المروة، ولأعصبنكم عصب السلمة، ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل، فإنكم لكأهل قرية ﴿كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: 11]، وإني والله لا أعد إلا وفيت، ولا أهم إلا أمضيت، ولا أخلق إلا فريت»[12].

وتعد هذه الخطبة من أشد خطب الحجاج هجوماً على مخاطبيه، ومن أقساها أسلوباً، حيث تعج بالصور البيانية التي تثير الخوف والفزع في قلوب المستمعين. فقد

11- د. محمد عثمان علي، أدب الإسلام ص 697.

12- الجاحظ، البيان والتبيين جـ 2 ص 366.

بدأها بأسلوب النداء لفتاً لهم، ثم دخل في التهديد مباشرة موظفاً الصور الفنية، كي يدخل الرعب والفزع في قلوبهم عن طريق التجسيم، ولم يكتف بصورة واحدة بل تدفقت الصور، وتتابعت لغرض التهويل والتفزيع، « إني لأرى رؤوساً قد أينعت وحان قطافها ... وكأني أنظر إلى الدماء بين العمائم واللحى» فإذا كان عبد الملك بن مروان قد اعتمد على تنويع الأساليب، بين الخبر والإنشاء كي يقنع جمهوره، فلقد اعتمد الحجاج بن يوسف الثقفي على أسلوب التعبير بالصورة المتدفقة، والمتنوعة، بين صور التهديد والوعيد، وبين الصور التي يحاول بها أن يبرر مسلكه العنيف وأسلوبه الشديد القسوة، « فوجدني أمرها عوداً، وأصلبها مكسراً فرماكم بي لأنكم طالما أوضعتم في الفتن، وأضجعتم في مراقد الضلال، وسننتم سنن الغي» كما يوظف أساليب القسم بلفظ الجلالة تأكيداً على صدق تهديده، ويستخدم التوكيد باللام ونون التوكيد الثقيلة، حتى لا يظن مستمعوه أنه مجرد قسم سيحنث به، دون أن يترك التعبير بالصورة في معظم خطبته.

وانظر إلى تلك الصور المتتابعة والمؤكدة لكلامه، حيث يصورهم بغرائب الإبل تضرب ضرباً شديداً لتبتعد عن الحوض، « لألحونّكم لحو العصا، ولأقرعنكم قرع المروة، ولأعصبنكم عصب السلمة، و لأضربنكم ضرب غرائب الإبل» لتجد أنه من المستحيل أن تحذف صورة، وتضع غيرها مكانها وتدل على نفس المعنى وقسوته وشدة تأثيره.

فأسلوب الحجاج أقرب للشعر في تأثيره، حيث تبتدي الشعرية في ذلك التدفق التصويري -إن صح التعبير- وحسن اختياره للمفردة الموحية، ففي قوله مثلاً « نثر كنانته بين يديه، فعجم عيدانها فوجدني أمرها عوداً» فلفظ «عجم» تدل على الاختيار الدقيق والتوفيق الصائب، فهو اختيار عن خبرة وحنكة واقتدار، مما يدلل على مدى ذكاء الخليفة وحسن اختياره لشخصية الحجاج بن يوسف الثقفي دون غيره، وانظر إلى اختياره الدقيق للفعل «رماكم بي»؛ لأنه أفضل من رماني بكم لأن الجملة الأولى تظهر قدرته وحسمه وحسن تدبيره للأمور كما تؤكد مدى انسجام الاختيار بين ما يصرون على ارتكابه من معصية الخليفة، وبين ما سيحدث لهم نتيجة هذا الاختيار الموفق والرادع لتلك الأفعال.

هذا إلى جانب الأفعال «أوضعتم، أضجعتم، سننتم» التي تدل على حبهم للفتن، ثباتهم وإصرارهم على الضلال، و إرشادهم للغير إلى طرق الغي، مما يستوجب أن تكون العقوبة التالية مبررة ومقنعة للجميع، بالابتعاد عن نهجهم وأفعالهم. ليأتي توظيفة

للآية القرآنية كالخاتمة المتوقعة، والتي توجز ببلاغتها مصيرهم المحتوم نتيجة لما قدموه من أفعال أوجبت هذا الجزاء وبررته. إلى جانب ما في الخطبة من السجع وحسن تقسيم الفقرات يقول الحجاج: « وأني والله لا أعد إلا وفيت، ولا أهم إلا أمضيت، ولا أخلق إلا فريت[13] »[14].

والحقيقة أن الخطابة السياسية في عصر بني أمية عامة، وعلى لسان عبد الملك بن مروان ووالية الحجاج بن يوسف الثقفي بخاصة، قد وصلت إلى درجة عالية من تأنق الأسلوب، وتطويع اللغة للفكر، والتعبير بالصور الفنية التي تتدفق لتجسد جو الخوف والرعب وتجبر الناس على الطاعة والاستماع. لغة ارتفعت بالنثر إلى مصاف الشعر، فاتسمت الخطب بشعرية مائزة، وأسلوب بديع وهذا مثال آخر من خطب الحجاج، يتبين فيها أسلوبه ومدى ما وصلت إليه قريحته وذوقه في التفنن في اختيار المفردات والتصوير التمثيلي، يقول في خطبة له بعد موقعة (دير الجماجم)[15] حيث صور كيفية سيطرة الشيطان على نفوس أهل العراق تصويراً شخصياً فيه استحضار وتجسيم بديع:

« يا أهل العراق، إن الشيطان قد استبطنكم فخالط اللحم والدم والعصب والمسامع والأطراف والأعضاء والشغاف ثم أفضى إلى الأمخاخ والأصماخ، ثم ارتفع فعشش، ثم باض وفرخ، فحشاكم نفاقاً وشقاقاً واتخذتموه دليلاً تتبعونه، وقائداً تطيعونه، ومؤمراً تستشيرونه، فكيف تنفعكم تجربة، أو تعظكم وقعة أو يحجزكم إسلام، أو ينفعكم بيان، ألستم أصحابي بالأهواز، حيث رمتم المكر، وسعيتم بالغدر، واستجمعتم للكفر، وظننتم أن الله يخذل دينه وخلافته، وأنا أرميكم بطرفي وأنتم تتسلون لواذاً وتنهزمون سراعاً، ثم يوم الزاوية وما يوم الزاوية، به كان فشلكم، وتنازعكم وتخاذلكم، وبراءة الله منكم، ونكوص وليكم عنكم، إذ وليتم كالإبل الشوارد إلى أوطانها النوازع إلى أعطانها، لا يسأل المرء عن أخيه ولا يلوي الشيخ على بنيه، حيث عضكم السلاح ووقصتكم الرماح، ثم يوم دير الجماجم، وما يوم دير الجماجم؟ به كانت المعارك والملاحم، بضرب يزيل الهام عن مقيله، ويزهل الخليل عن خليله ... ثم التفت إلى أهل الشام فقال: يا أهل الشام إنما أنا لكم كالظليم الرامح عن فراخه، ينفي عنها المدر،

13- فريت: قطعت ومزقت

14- الجاحظ، البيان والتبيين جـ2 ص 366.

15- موقع دير الجماجم: كانت بين الحجاج وعبد الرحمن بن محمد بن الأشعث بقرب الكوفة وفيها هزم بن الأشعث سنة 83 هجرياً.

ويباعد عنها الحجر، ويكنها من المطر ويحميها من الضباب ويحميها من الذئاب يا أهل الشام أنتم الجنة والرداء وأنتم العدة والحذاء»[16].

فانظر كيف صعد بالتصوير درجة بعد أخرى حتى وصل إلى ذروة الإبداع التصويري، بغرض إحداث أقصى تأثير في مستمعيه، وكأن الشيطان قد استولى عليهم فحولهم إلى عبيد يأتمرون بأمره، وليس أدل على السيطرة والامتلاك من التعبير بتلك الأفعال الموحية «استبطنكم، خالط، أفضى، ارتفع، عشش، باض وفرخ، تطيعونه، تستشيرونه» فهذه الأفعال بترتيبها التصاعدي عملت على تضخيم ما هم عليه من اتباع كامل للشيطان الذي سلبهم كل شيء حتى أصبح دليلهم وقائدهم ومؤمرهم.

وليس أدل على هذا السلب وتلك السيطرة، من التعبير بحرف العطف ثم الذي يدل على التراخي والانتقال من مرحلة إلى أخرى بصعوبة بالغة، توحي بثباتهم، فبعد أن خالط اللحم والدم والعصب والمسامع أخذ يصعد إلى الأمخاخ، حتى باض وفرخ وهذان الفعلان يدلان على التطور والانتقال إلى ذروة السيطرة والتحكم والتأثير الملموس.

«فانظر إلى هؤلاء الرجال كيف طوعوا اللغة لأساليب التهديد والوعيد التي تملأ نفوس مستمعيهم هلعاً ورعباً، وهو جانب يعكس لنا الصورة التي كانت عليها سياستهم تجاه خصومهم من الأحزاب الأخرى، كما أنها تعكس لنا الحال التي وصل إليها المسلمون من قهر وبطش»[17].

ومن شعرية الخطابة عند الحجاج بن يوسف الثقفي توظيفه الكثير لآيات القرآن الكريم بالاقتباس[18] المباشر كما في خطبته السابقة، أو بالإشارة إلى الآية من خلال توظيف بعض ألفاظها أو معناها الكلي وهذا ما نجده هنا حيث يقول «وأنتم تتسلون لواذاً وتنهزمون سراعاً» وهو إشارة لقوله تعالى في سورة ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: 63]، فسياق الآية سياق تهديد وإنذار ينسجم مع سياق الخطبة. وكقوله «وبراءة الله منكم» إشارة إلى قوله تعالى في سورة التوبة:

16- الجاحظ، البيان والتبيين جـ2 ص 138 ما بعدها.

17- د. محمد عثمان علي، أدب الإسلام ص 649.

18- انظر د. محمد رمضان الجربي، البلاغة التطبيقية، علم البديع ص 194 ما بعدها.

﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: 1]، ليؤكد مدى تخاذلهم ونكوصهم عنه.

وقوله: ثم يوم الزاوية وما يوم الزاوية، ثم يوم دير الجماجم وما يوم دير الجماجم؟ فهو متأثر بقوله تعالى: ﴿الْقَارِعَةُ مَا الْقَارِعَةُ﴾ [القارعة: 1-2]، وهو ما يعرف بتكرار الفواصل والمعروف أن توظيف آيات القرآن الكريم تضفي على الأسلوب روعة من خلال بلاغة القرآن ودقة تصويره لأحوال الناس وما يعتمل في دواخل نفوسهم من مشاعر وأحاسيس.

كما نجد في نهاية الخطبة تصوير متنامي يقوم على الحركة يبدأ بسيطاً حتى يكون لوحة فنية رائعة لغرض إظهار مكانة أهل الشام عنده في مقابل أهل العراق، حيث يبدأ بتصويرهم كالفراخ الصغيرة وهو لهم كالظليم الرامح، ينفي عنهم المدر ويباعد عنهم الحجر ويكنهم من المطر وآخره حتى تستكمل الصورة التمثيلية كاملة وتشف عن المعنى وتظهر مدى عواطفه وميله الشديد إلى أهل الشام وإعراضه عن أهل العراق ولا يكتفي بتوظيف القرآن بل يوظف الشعر في قوله عن معركة دير الجماجم (بضرب يزيل الهام عن مقيله) فهو من قول النابغة الذبياني في معلقته:

بضرب يزيل الهام عن سكناته وطعن كإيزاغ المخاض الضوراب[19]

ولا يخفى أثر التناص في إنزال أقصى درجات الرعب والفزع، في قلوب السامعين خاصة إذا كان التعبير بالمصدر «ضرب، طعن».

مما سبق يتبين لنا أن الخطابة السياسية فن نثري، يتخذ الكلام وسيلة لإقناع الغير بمحتوى فكري معين، وأنها قد وصلت إلى شعرية وظفت كثيراً من فنون البلاغة، لتحدث تأثيراً مقصوداً في السامعين فتقنعهم وتردعهم في ذات الوقت، أما جانب الإقناع والطاعة والقيم الخلقية في الخطابة فقد تكفلت بها كتب أخرى كثيرة[20].

أما هذه الدراسة فقد قصرتها على ما في الخطابة السياسية من شعرية تسمها بخصائص أدبية واضحة، وقد رأينا ما في خطب عبد الملك بن مروان ووالية الحجاج بن يوسف الثقفي من سمات شعرية تخص الكلمة والجملة، وتشمل الأسلوب والسياق.

19- ديوان النابغة الذبياني دار المعرفة بيروت ص 15.

20- د. سعيد حسين منصور، القيم الخلقية في الخطابة العربية ص 79 وما بعدها.

« ولكي يصل الخطيب إلى إقناع الآخرين بوجهة نظره لابد له من اللجوء إلى وسائل معينة كأسلوب الترغيب والترهيب، وإلى مهارات ذهنية وفنية يستطيع من خلالها أن يبرهن على صحة ما يقول مستعيناً بالمنطق والحجة والرأي الحاسم، كل ذلك بطريقة فنية تشد السامع وتجعله قابلاً للتواصل مع الخطيب، ملماً بموضوع الخطبة ومضمونها »[21].

خطبة لزياد بن أبيه

ومن هؤلاء الخطباء المشهورين في هذا العصر زياد بن أبيه[22] وقد برز زياد في فن الخطابة بروزاً واضحاً لعدة أسباب أولها أنه قد تولى مهام إدارية وقيادية كبيرة، في فارس والعراق والحجاز واليمامة في زمن معاوية بن أبي سفيان.

أما السبب الثاني أن النشاط السياسي والديني والصراع الحزبي كان على أشده، حيث كثرت الأحزاب وتعددت نشاطاتها فراحت تعمل بشتى السبل والوسائل للوصول إلى أهدافها، عن طريق المؤامرات أو الخطباء المفوهين الذين يدعون لأفكارهم، وقد يكون هناك سبب ثالث يخص نسب زياد وهو ما انعكس قوة في شخصيته وبلاغة في نطقه وأسلوبه كي يكون هذا النجاح معادلاً موضوعياً لاضطراب النسب[23].

ومن أهم خطب زياد بن أبيه وأشهرها خطبته المعروفة بـ (البتراء)[24]، فقد وصلت شهرتها الآفاق، وأصبحت كأشهر قصائد المعلقات لأسلوبها الشعري المميز، وبلاغتها في التصوير ومراعاتها للمستمعين، ومنطقها المقنع. يقول فيها « أما بعد، فإن الجهالة الجهلاء، والضلالة العمياء، والغي الموفي بأهله على النار ما فيه سفهاؤكم كأنكم لم تقرأوا كتاب الله، ولم تسمعوا ما أعد الله من الثواب الكريم لأهل طاعته، والعذاب الأليم لأهل معصيته في الزمن السرمدي الذي لا يزول، أتكونون كمن طرفت عينيه الدنيا، وسدت مسامعه الشهوات واختار الفانية على الباقية، ولا تذكرون أنكم أحدثتم في الإسلام الحدث الذي لم تسبقوا إليه، من تركككم للضعيف يقهر، ويؤخذ ماله، وهذه

21- على نعيم جفال، زياد بن أبيه، دار الكتب العلمية بيروت ص 49.

22- زياد بن أبيه بن أبي سفيان والد معاوية، وأمه، سمية، أمة لأبي الخير بن عمرو الكندي. المصدر نفسه ص108 وما بعدها.

23- انظر المصدر نفسه ص 131 ما بعدها.

24- سميت بالبتراء لأنه بداها مباشرة دون أن يحمد الله ولم يصل على النبي ﷺ.

المـواخير المنصـوبة والضـعيفة المسـلوبة في الـنهار المبصر ... تغضون على المختلس، قـربتم القرابة وباعدتم الدين ... إني رأيت آخر هذا الأمر لا يصلح إلا بما صلح به أوله، لين في غير ضعف، وشدة في غير عنف، وإني أقسم بالله لآخذن الولي بالمولى، والمقيم بالظـاعن، والمقـبل بالمدبـر، والصـحيح مـنكم بالسـقيم، حتـى يلقى الرجل منكم أخاه فيقول: انج سعد فقد هلك سعيد، أو تستقيم قناتكم ... وإياي ودعوة الجاهلية فإني لآخذ داعـياً بهـا إلا قطعـت لسـانه، وقد أحدثتم إحداثاً لم تكن، وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبة، فمـن أغـرق قـوماً أغرقناه، ومن أحرق قوماً أحرقناه، ومن نقب بيتاً نقبنا عن قلبه، ومن نـبش قـبراً دفـناه فـيه حياً، فكفوا عني أيديكم وألسنكم أكف عنكم يدي ولساني ... أيها الـناس إنـا أصـبحنا لكـم سـادة، وعـنكم زاده نسوسكم بسلطان الله الذي أعطانا، ونذوده عـنكم بفـيء الله الـذي خولـنا، فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا ولكم علينا العدل والإنصاف فيما ولينا، واعلموا أني مهما قصرت عنه فلن أقصر عن ثلاث: لست محتجباُ عـن طالـب حاجـة منكم ولو أتاني طارقاً بليل، ولا حابساً عطاء ولا رزقاً عن إبانه، ولا محمـرا لكـم بعـثاً فادعـوا الله بالصلاح لأئمتكم، فإنهم ساستكم المؤدبون وكهفكم الذي إليه تؤون ... إلخ »[25].

فـزياد يـبدأ كلامـه مذكـراً الـناس بـتهاونهم في أمـر الدين، بعد أن شغلتهم الدنيا بشـهواتها وملـذاتها عـن أهم ركن في الدين، وهو طاعتهم لله وبالتالي لأولي الأمر وهو من أجل هذه الطاعة يلجأ للتصوير البياني، كي تنكشف الموازنة وتبدو ظاهرة ومجسمة « أتكونون كمن طرفت عينيه الدنيا وسدت مسامعه الشهوات واختار الفانية على الباقية » فالصورة البيانية تجسم إلى أي مدى وصلت بهم شهواتهم، فأصبحت جداراً وستراً حاجباً بيـنهم وبـين الـرؤية الواضـحة، لأن الفعل (طرف) للعين يعني إيذائها إلى القدر الذي لا يقضـي علـيها، بـل يمـنعها مـن الـرؤية الصحيحة، ويجعل الأشياء غير واضحة أمامها، وكذلك مفاسد الدنيا وشرورها، فإنها تخلق حول النفس غشاءاً من جهالة وضلالة، تبعد عن الصواب والصراط المستقيم، التي أوجبت تعاليم الإسلام باتباعها. أما جملة « سدت مسامعه الشهوات » فهي تعني أن الانصياع لرغبات النفس الدنيئة يخلق ستاراً صفيقاً بين الإنسـان وبـين حاجـته لسـماع الموعظة والإرشاد، فتغلبه للنزعة العضوية المادية فيعير النصـح إذ ذاك أذنـاً صماء وفؤاداً مثقلاً بالميول الدنيئة والفاسدة، وفي الجملة الأخيرة من المـثال « اخـتار الفانـية علـى الباقـية » نراه يستعمل فعل (اختار) ليجعل من الأمر عملاً

25- الجاحظ، البيان والتبيين جـ2 ص62 ما بعدها.

مقصوداً، وليس صدفة أو خطأ وقع فيه الإنسان (سهواً)[26].

إلى جانب استعماله لأسلوب السجع الذي يخدم المعنى المراد، ويحدث التأثير المطلوب في السامعين، « إن الجهالة الجهلاء، والضلالة العمياء ... ولم تسمعوا ما أعد الله من الثواب الكريم لأهل طاعته، والعذاب الأليم لأهل معصيته». فقد جمع في افتتاح الخطبة بين عدة أساليب بلاغية، من سجع وصورة فنية ممثلة في الاستعارة «الضلالة العمياء» فقد استعار العمى للضلالة، كي يصور مدى تخبطهم وعدم رؤيتهم للحقائق، رغم تركيز الإسلام عليها.

ووظف الكناية في قوله «أتكونون كمن طرفت عينيه الدنيا، وسدت مسامعه الشهوات» كناية عن تماديهم في الضلال وتعاميهم عن الفساد، كما نجد كثيراً من صور الطباق بين «الثواب والعقاب، أهل طاعته وأهل معصيته، الفانية والباقية»، لأن زياد يريد أن يصل بهم من خلال عقد هذه المقارنة إلى الفرق بين الطاعة والمعصية حيناً وبين الثواب والعقاب حيناً آخر[27].

كما استخدم في الجزء الثاني من هذه الخطبة أسلوب الإطناب لأنه يريد أن يوضح ما هم عليه من ضلال وفساد طوية حيث يقول: ولا تذكرون أنكم أحدثتم في الإسلام الحدث الذي لم تسبقوا إليه من تركككم الضعيف يقهر ويؤخذ ماله، وهذه المواخير المنصوبة والضعيفة المسلوبة في النهار المبصر ... إلخ.

وهكذا استطاع زياد عن طريق توظيف تلك الأساليب الشعرية أن يعالج عدة مواضيع غاية في الأهمية من جهة نظره. أولها وجوب طاعة أولي الأمر لبني أمية، وربط هذه الطاعة بالدين فطاعتهم طاعة لله، ومعصيتهم معصية لله، ثم وصف ما هم عليه من فساد وضلال، ووضع الحلول لذلك الفساد وهذا الضلال ثم في النهاية ربط الإصلاح باللين الذي لا يصل إلى حد التهاون والضعف، والشدة التي لاتصل إلى حد العنف ... إلخ.

كل ذلك في أسلوب شعري رصين، وتنوع بين الخبر والإنشاء والمزاوجة بين الأساليب الموحية بالدلالة فهو يقول مثلاً « إني رأيت آخر هذا الأمر لا يصلح إلا بما صلح به أوله» تأكيد ونفي واستثناء بإلا إلى جانب توظيفه للاستفهام الإنكاري «أن

26- علي نعيم جفال، زياد بين أبيه ص 143 ما بعدها.

27- انظر المصدر نفسه ص 150 ما بعدها.

تكونوا كمن طرفت عينيه الدنيا» ثم إنه يستخدم التعجب الذي يفيد التوبيخ «كأنكم لم تقرأوا كتاب الله، ولم تسمعوا ما أعد الله من الثواب الكريم لأهل طاعته والعذاب الأليم لأهل معصيته ...».

وصدق خلاد بن يزيد الأرقط عن أبي المؤنس الشعب أنه قال: «ما سمعت متكلماً على منبر قط، تكلم فأحسن إلا أحببت أن يسكت خوفاً من أن يسيء إلا زياداً فإنه كلما أكثر كان أجود كلاماً»(28).

وإني لمتخيل الحجاج بن يوسف الثقفي وغيره بطلاً أسطورياً من أبطال الأساطير اليونانية يقف على المنبر منتصباً كالرمح الرديني، في كامل هيئته وهيبته، ينادي بأعلى صوته الأجش الشديد «يا أهل الكوفة» مرة و«يا أهل العراق» مرة أخرى فيقر في الأنفس رعباً وتفزيعاً لا يعادله أي رعب وتفزيع، ويلون في أساليب خطابه بين الأمر والنهي والاستفهام والنداء ليكشف عما تخبأه نفسه من قسوة وحسم وقوة حجة أو ما يستكن في نفوس مستمعيه من نوازع شريرة يريد أن يمحقها وينسفها نسفاً، فهل كان الحجاج على معرفة بمبدأ (التطهير) كما هو عند اليونان بمعنى أن خطبته كانت بمثابة التطهير لهؤلاء المستمعين والخارجين عن قانون دولة بني أمية فتتطهر نفوسهم من أجران الانفعالات فتهدأ، فلا تفكر مجرد تفكير في التمرد أو الثورة خاصة بعد ما سمعت ورأت ما ينتظرها من عقاب رادع وبطش شديد، وقد يمتد هذا التطهير ليصل إلى الحجاج نفسه فيتطهر من انفعاله الخطابي أو من العبأ الذي ألقى الخليفة على عاتقه، وبهذا يؤكد له أنه الأصوب اختياراً والأمر عوداً والأصلب رأياً والأشد بطشاً.

وهل كانت الخطابة السياسية في هذا العصر نتاج طبيعي لكل الظروف المحيطة بالدولة الأموية سياسياً واجتماعيا وثقافياً؟، فعلى المستوى السياسي يتمثل في ذلك الصراع المشتعل بين الأحزاب وعلى المستوى الاجتماعي يتمثل في تلك الطبقية التي مزقت أمة الإسلام الواحدة فأصبحت طبقات بعضها فوق بعض، على قمتها طبقة الخلفاء والأمراء وقوات الجند، وفي أسفلها عامة الشعب، وفي وسطها طبقة العلماء والتجار والشعراء، أما المستوى الثقافي فيتمثل في أن المجتمع الأموي كان جد قريب من العصر الجاهلي ببلاغته وفصاحته، وحفاظه على اللغة في أساليبها وصورها البيانية، ومن ثم فالحجاج بن يوسف الثقفي وغيره من خطباء هذا العصر، كانوا يحملون على عاتقهم

28- الطبري، تاريخ الأمم والملوك جـ4 ص 167، الجاحظ، البيان والتبيين جـ 2 ص 65 وما بعدها.

رسالة ذات مضمون سياسي ومعطيات فكرية خاصة تنتهي بنتائج محسوبة بكل دقة، والذي لا شك فيه أن هذه الرسالة بأهدافها تحققت، على الرغم من المواجهة والتمرد والعصيان والخروج والثورة والقتال في أحيان كثيرة.

خطب التوابين

والتوابون جماعة قامت تدعو إلى الثأر من قتلة الحسين بن علي كرم الله وجهه، وإعادة الخلافة إلى آل البيت، فبعد مقتل الحسين في كربلاء نادوا بالتوبة نتيجة لتقاعسهم عن نصرته، وتفريطهم في حقه، وتهاونهم في نجدته، وواضح من دعوتهم أنهم ينتمون إلى حزب الشيعة وقد ذكر الطبري في كتابه (جمهرة أشعار العرب) خطبة لعبيد الله بن عبد الله المري، وهو من أبلغ خطبائهم، وأفصحهم لساناً حيث يقول:

« فإن الله اصطفى محمداً ﷺ بنبوته وخصه بالفضل كله وأعزكم باتباعه وأكرمكم بالإيمان به فحقن به دماءكم المسفوكة، وأمن به سبلكم المخوفة ﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: 103]، فهل خلق ربكم من الأولين والآخرين حقاً على هذه الأمة من نبيها؟ وهل ذرية أحد من النبيين والمرسلين أو غيرهم أعظم حقاً على هذه الأمة من نبيها؟ وهل ذرية أحد من النبيين والمرسلين أو غيرهم أعظم حقاً على هذه الأمة من رسولها؟، لا والله ما كان وما يكون، لله أنتم، ألم تروا أو يبلغكم ما اجترم على ابن بنت النبي، أما رأيتم إلا انتهاك القوم حرمته، واستضعافهم وحدته وترميلهم إياه بالدم، وتجرارهم على الأرض؟ لم يراقبوا فيه ربهم ولا قرابته من الرسول ﷺ؟، اتخذوه للنبل غرضاً، وغادروه للضباع جزرا، فلله عينا من رأى مثله!!

ولله حسين بن علي ماذا غادروا به ذا صدق وصبر وذا أمانة ونجدة وحزم ابن أول المسلمين إسلاماً، وابن بنت رسول رب العالمين، قلت حماته وكثرت عداته حوله، فقتله عدوه، وخذله وليه، فويل للقاتل وملامة للخاذل، إن الله لم يجعل لقاتله حجة، ولا لخاذله معذرة إلا أن يناصح لله في التوبة، فيجاهد القاتلين، وينابذ القاسطين الله عند ذلك أن يقبل التوبة، ويقيل العثرة، إنا ندعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه والطلب بدماء بيت أهله ... إلخ »[29].

29- انظر الخطبة في، جمهرة خطب العرب، محمد زكي صفوت مصر 1933 ص 35 والطبري تاريخ الأمم والملوك جـ4 ص 433.

فقد رشح عبيد الله لأفكاره ترشيحاً جيداً، وذلك كي تتمكن أفكاره في نفس مستمعيه عن اقتناع وفهم لا عن أمر ونصيحة، لا يتبعها دليل، حيث فصل وأطنب في فضل النبي على المسلمين واستشهد بالقرآن كعادة الخطباء قبله، ليكون القرآن خير دليل على صدق حديثه، ثم يبدأ في تنويع أسلوبه بين الخبر والإنشاء ليخلق حالة من النفي الذي يستوجب التحرك والعمل والاستجابة السريعة، ويوظف أسلوب الاستفهام التصويري كي يجعلهم يستحضرون الحدث المأساوي، ويتخيلون فداحة الجرم وشدة الجريمة « أما رأيتم إلى انتهاك القوم حرمته واستضعافهم وحدته وترميلهم إياه بالدم، وتجرارهم على الأرض؟» كما يمزج النفي بالتعجب كي يستشعر المستمع الأسى ويشاركه الفاجعة (لله أنتم، لله حسين بن علي)، (لله عينا من رأى مثله) « وقد أضفت هذه العبارات على الخطبة لوناً خاصاً من التأثير، هذا فضلاً عن المقابلات والمطابقات التي تشع في ثنايا الخطبة (قلت حماته وكثرت عداته) (قتله عدوه وخذله وليه) وهي تدل على أن الخطيب كان يعني بأسلوبه عناية خاصة، حيث يعمد إلى صوغ الجمل القصيرة التي تتابع في انسياب يحدث تأثيره في عقول مستمعي الخطبة ووجداناتهم»[30].

ومن الملاحظات الشعرية، حرص عبيد الله على ربط جمله برباط قوي حيث ربط الجمل برباط السبب والنتيجة يقول مثلاً « إن الله لم يجعل لقاتله حجة ولا لخاذله معذرة إلا أن يناصح الله في التوبة، فيجاهد القاتلين، وينابذ القاسطين، فعسى الله عند ذلك أن يقبل التوبة، ويقيل العثرة».

فالجمل ترتبط ببعضها البعض برباط المعنى، ولا تنتهي الفكرة إلا عند آخر كلمة، فأتت الجمل متماسكة يشد بعضها بعضاً كالبنيان المرصوص. كما يحمد له أيضاً دقته في اختيار الكلمات المعبرة عن المعنى بكل حسم، « ألم تروا أو يبلغكم ما اجترم على أبن بنت نبيكم» فالمستمعون إما بين راء للحدث أو مبلغ له ولم يره، كما أن الفعل (اجترم) من الجرم وهو الذنب الكبير الذي يستوجب نهوضاً وثورة ودفعاً لمقاومته، كما أن عطفه للجمل يؤدي نفس الهدف، « أن يناصح الله في التوبة، فيجاهد القاتلين، وينابذ القاسطين» فهو يوظف الفعل عن وعي بدلالته، فقد بدأ بالنصح فالجهاد فالمنابذة، أي بدأ بالأقل حتى وصل إلى الذروة وهي المنابذة والمقاومة، أو بالقول حتى انتهى إلى التغيير بالفعل والجهاد.

30- د. محمد عثمان علي، أدب الإسلام ص 660.

خطب الخوارج

والخوارج من الأحزاب السياسية التي ناوأت حكم بني أمية، وقد عرفوا بالبلاغة وإجادة الخطابة، ومن خطبائهم المفوهين، الشاعر قطري بن الفجاءة، والقاسم بن عبد الرحمن الضبي، ومن أشهرهم أبو حمزة الشاري أو كما هو مشهور بحمزة الخارجي الإباضي[31]، يقول بعد أن يعدد الأحداث التي مرت بالمسلمين منذ عهد النبي ﷺ مروراً بأبي بكر وعمر بن الخطاب ثم عثمان بن عفان ثم علي بن أبي طالب، ثم معاوية بن أبي سفيان حتى يصل إلى يزيد بن عبد الملك فيصفه بصفات الفسق والضلال وعدم الرشاد، ويستشهد على صحة حديثه بالقرآن الكريم، يقول: « ثم ولى يزيد بن عبد الملك الفاسق في دينه، المأبون في فرجه، الذي لم يؤنس منه الرشد، وقد قال الله تعالى في أحوال اليتامى: ﴿فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ [النساء: 6]، فأمر أمة محمد ﷺ أعظم بأكل الحرام وبشرب الخمر، ويلبس الحلة قومت بألف دينار، قد ضربت فيها الأبشار، وهتكت فيها الأستار، وأخذت من غير حلها، حبابة عن يمينه، وسلامة عن يساره تغنيانه حتى إذا أخذ الشراب منه كل مأخذ قدٌ ثوبه، ثم ألتفت إلى أحدهما فقال ألا أطير ألا أطير! نعم فطر إلى لعنة الله وحريق ناره وأليم عذابه.

وأما بنو أمية ففرقة الضلالة بطشهم بطش جبرية يأخذون بالظنة، ويقضون بالهوى ويقتلون على الغضب، ويحكمون بالشفاعة ويأخذون الفريضة من غير موضعها، ويضعونها في غير أهلها وقد بين الله أهلها فجعلهم ثمانية أصناف، فقال: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ [التوبة: 60]، فأقبل صنف تاسع ليس منها فأخذها كلها، تلكم الفرقة الحاكمة بغير ما أنزل الله وأما هذه الشيع فشيع ظاهرات بكتاب الله، وأعلنوا الفرية على الله، لم يفارقوا الناس ببصر نافذ في الدين، ولا بعلم نافذ في القرآن، ينقمون المعصية على أهلها ويعلمون إذا ولوُّا بها يصيرون على الفتنة ولا يعرفون المخرج منها جفاة عن القرآن، اتباع كهان، يؤملون الدول في بعض الموتى، ويعتقدون الرجعة إلى الدنيا قلدوا دينهم رجل لا ينظر لهم قاتلهم الله أنى يؤفكون».

31- هو أبو حمزة الشاري الخارجي بن عوف ينتهي نسبه إلى الأزد اليمنية، خرج على مروان بن محمد، فأرسل إليه جيشاً بقيادة، عبد الملك بن عطية، فهزمه وحمل رأسه إلى مروان. د. محمد عثمان علي، أدب الإسلام ص 664.

ثم أقبل على أهل الحجاز فقال: « يا أهل الحجاز أتعيرونني بأصحابي وتزعمون أنهم شباب؟! وهل كان أصحاب رسول الله ﷺ إلا شباباً، أما والله إني لعالم بتتابعكم، فيما يضركم في معادكم، ولولا اشتغالي بغيركم عنكم ما تركت الأخذ فوق أيديكم، شباب والله مكتهلون في شبابهم، غبية عن الشر أعينهم، ثقيلة عن الباطل أرجلهم، أنضاء عبادة وأطلاح سهر، ينظر الله إليهم في جوف الليل منحنية أصلابهم على أجزاء القرآن، كلما مر أحدهم بآية من ذكر الجنة بكى شوقاً إليها، وإذا مر بآية من ذكر النار شهق شهقة كأن زفير جهنم بين أذنيه، موصول كلالهم بكلالهم، كلال الليل بكلال النهار، قد أكلت الأرض ركبهم وأيديهم وأنوفهم وجباههم، واستقلوا ذلك في جنب الله، حتى إذا رأوا السهام قد فوقت والرماح قد أشرعت، والسيوف قد أنضيت ورعدت الكتيبة بصواعق الموت وبرقت، استخفوا بوعيد الكتيبة لوعد الله ومضى الشاب منهم قدماً حتى اختلفت رجلاه على عنق فرسه، وتخضبت بالدماء محاسن وجهه، فأسرعت إليه سباع الأرض، وانحطت عليه طير السماء، فكم من عين في منقار طائر طالما بكى صاحبها في جوف الليل من خوف الله وكم من كف زالت عن معصمها طالما اعتمد عليها صاحبها في جوف الليل بالسجود لله، ثم قال: آه آه آه (ثلاثاً) ثم بكى ونزل »[32].

وهذه الخطبة تمثل خير تمثيل سياسة الخوارج تجاه بني أمية، الذين يمثلون الفرقة الضالة المضلة لغيرها، الخارجة عن الدين، الظالمة للمحكومين، كما يعرج على الشيعة فرأى أنهم أيضاً ليسوا على شريعة سواء، حيث فارقوا المسلمين وقالوا بالولاية، أي أن الولاية من الله لعلي، « ينقمون على فعل المعصية ويرتكبونها حتى يخلون بأنفسهم ويصرون على الفتنة، ولا يعرفون كيف يكون الخروج منها وهو هنا إنما يعني ثورات الشيعة التي قامت ضد الأمويين وحرصهم على الخروج على سلطان بني أمية في كل حين »[33]، حتى يصل إلى شباب الخوارج، فيأخذ في تصويرهم بأسلوب شعري غاية في الإبداع والحساسية، التي تصل فيه اللغة إلى ذروة التجسيم حيث يقول مصوراً حالتهم وقد أتعبوا أنفسهم في العبادة وقضوا وقتهم في السهر « شباب والله مكتهلون في شبابهم، غبية عن الشر أعينهم، ثقيلة عن الباطل أرجلهم، أنضاء عبادة وأطلاح سهر » فمع حسن التصوير نجد حسن التقسيم الجملي الذي يزيد المعنى جمالاً ويجعله أشد تأثيراً في النفوس.

32- الجاحظ، البيان والتبيين جـ2 ص 193 ما بعدها.

33- المصدر نفسه جـ2 ص 193 وما بعدها.

وانظر إلى روائع التصوير البياني الذي يقوم على التجسيم في قوله «قد أكلت الأرض ركبهم وأيديهم، وأنوفهم وجباههم، واستقلوا ذلك في جنب الله» ثم انظر إلى هذا التصوير المتنامي الذي يبدأ بخيال بسيط ثم يأخذ في النمو حتى يصير لوحة كاملة تقوم على الخيال الخصب الذي يجمع بين المتنافرات في ربقة واحدة «استخفوا بوعيد الله ومضى الشاب منهم قدماً حتى اختلفت رجلاه على عنق فرسه، وتخضبت بالدماء محاسن وجهه فأسرعت إليه سباع الأرض، وانحطت عليه طير السماء»، فالصورة الكلية تحوي صوراً جزئية متتابعة، تسهم كلاً منها في ثراء وجمال الصورة الكلية فتأتي تأثيراً وانسجاماً وإبداعاً فلا يجد القارئ والمستمع مشاركته وجدانياً في هذا التصوير المبدع، والذي يقوم على صورة حركية وتمثيلية شديدة التأثير في النفس.

ويضاف إلى ما سبق ذلك التنويع الأسلوبي المقصود والمحسوب بكل دقة بين النداء «يا أهل الحجاز»، والاستفهام «أتعيرونني بأصحابي وتزعمون أنهم شباب؟!»، والقسم «أما والله أني لعالم بتتابعكم» وتوظيفه للسجع والجناس كي يزيد الأسلوب شعرية وتأثيراً يقول: «طالما بكى صاحبها في جوف الليل من خوف الله، حتى إذا رأوا السهام قد فوقت، والرماح قد أشرعت، والسيوف قد انتضيت ورعدت الكتيبة بصواعق الموت وبرقت».

كما أنه يستخدم الطباق كي يبرز صوره فنية وفي نفس الوقت يكشف عن تضحية هؤلاء الشباب، وتحملهم عن المسلمين أذى كثير يقول «فأسرعت إليه سباع الأرض، وانحطت عليه طير السماء».

وهكذا تتزاوج الأساليب، وتنصهر بالصور الفنية المعبرة عن أدق الأفكار والعواطف فتخلع على الخطبة جواً شعرياً واضحاً، وتضفي على الأسلوب روعة وتأثيراً نتيجة لهذا التنوع والانسجام وكم كان أبو حمزة موفقاً عندما استدل بالآية القرآنية في بداية الخطبة على أخذ بني أمية مال المسلمين دون غيرهم، فهم يأخذون الزكاة من غير موضعها ويضعونها في غير أهلها، وهذا قمة الظلم، والخروج على آيات الله التي جعلت مصادر الزكاة ثمانية، فجعلوها عدواناً وظلماً تسعة فاستولوا على سائر المصارف الأخرى فهي إذن فرقة تحكم بغير ما أنزل الله[34].

فانظر كيف قدم أبو حمزة لفكرته حتى أخذ الحجة على بني أمية من القرآن،

34- انظر د. محمد عثمان علي، أدب الإسلام ص 666.

فأتت حجته في الاستدلال المنطقي وقمة أيضاً في التوبيخ والتبكيت، فتهتز صورتهم ويقتنع الناس بصدق حديثه.

ومهما يكن من أمر فإن فترة حكم الأمويين تعد فترة من أخصب الفترات سياسياً واجتماعياً وثقافياً. حيث تركت لنا هذا الزاد الثقافي والفكري من أشعار وخطب وصراعات ومنافرات أدت إلى ظهور أحزاب سياسية ومدارس فقهية ومذاهب شعرية « وتشكلت جبهات التأييد والمعارضة لما أستحدث من الأمور والمفاهيم وكأن الأدب اللسان الناطق لكل جبهة مستنداً إلى ماضي طويل من الإبداع الفني ومتأثراً في الوقت نفسه بمستحدثات لم يعرفها مجتمع القبلية أو المجتمع الإسلامي من قبل »[35].

أهم نتائج البحث

1. إن الخطابة السياسية في عصر بني أمية على الرغم من الظروف التي أدت إلى نشأتها إلا أنها بلغت درجة عالية من درجات البلاغة، بداية من اختيار المفردة الموحية والجملة المتماسكة المتناغمة مع ما قبلها وما بعدها بالإضافة إلى ذلك الجمال اللفظي الناتج من السجع والجناس وفنون البديع.
2. إن شعرية الخطابة السياسية تعني أنها تحتوي على قوانين الشعرية بداخلها مما يسمها بميسم الأدب الرفيع الذي يحوي جماليات الأسلوب وروعة الأداء الفني.
3. إن تراثنا الأدبي القديم في حاجة ماسة لإعادة القراءة في ضوء مدارس النقد الحديث ليتأكد لنا بما لا يدع مجالاً للشك ثراء هذا التراث و أدبيته.
4. إن أهم ما وسم تلك الخطب بالشعرية -إلى جانب ما سبق- براعة الخطيب في توظيف الصورة الفنية الجزئية والكلية التي تبدأ بسيطة ثم تأخذ في التنامي كلوحة فنية رائعة فعبد الملك بن مروان اعتمد على الصورة المفردة والحجاج اعتمد على الصور المتتبعة وأبو حمزة الشاري وظف الصورة المركبة.
5. إن هذه الخطب قد اعتمدت على توظيف القرآن إما عن طريق اقتباس آياته أو الإشارة إلى معانيها، كما وظفت الشعر إما أبياتاً كاملة أو أجزاء منها كي يضفي على الأسلوب أدبية رائعة وشعرية رائقة.
6. إن الخطابة قد نوعت في الأساليب بين خبرية وإنشائية كي يشد القارئ ويلفت نظره إلى بلاغة التركيب وحساسية الأسلوب.

35- د.جودة أمين، شعراء وتجارب في العصر الأموي، دار الثقافة العربية القاهرة ص11.

7. إن معظم الخطب المختارة قد مزجت بين فنون البلاغة من معاني وبيان وبديع وأنصهر كل ذلك في بوثقة الخطبة، لتأتي معبرة عن أدق المشاعر، وتخلع في نفس الوقت على الخطبة جواً شعرياً مؤثراً نتيجة لهذا التنوع والانسجام.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم
1. ابن عبد ربه، العقد الفريد، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط2، 1996.
2. أبو على القالي، الأمالي، دار الآفاق بيروت.
3. الطبري، تاريخ الأمم والملوك، دار الكتب العلمية، بيروت ط3.
4. الجاحظ، البيان والتبيين، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.
5. تزفيطان تودوروف، الشعرية، دار توبقال الدار البيضاء.
6. د. جودة أمين، شعراء وتجارب في العصر الأموي، دار الثقافة العربية، القاهرة.
7. د. سعيد حسين منصور، القيم الخلقية في الخطابة العربية.
8. صلاح فضل، نظرية البنائية في النص الأدبي، دار الشروق.
9. علي نعيم جفال، زياد بن أبيه، دار الكتب العلمية. بيروت، لبنان.
10. فيصل دارج وآخرون، أفق التحولات في الرواية العربية، دار الفنون عمان.
11. محمد رمضان الجربي، البلاغة التطبيقية، علم البديع.
12. محمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب، مصر 1933.
13. د. محمد عثمان علي، أدب الإسلام، كلية الدعوة الإسلامية.
14. النويري، نهاية الأرب في فنون العرب.
15. ديوان النابغة الذبياني، شرح حمد وطماس، دار المعرفة بيروت.